أتلقَّى مثلاً بمثلٍ فلمَّا صارَ عاجاً سرَّحْتُهُ بالعاجِ

فلما كان من الغد أنشدني لنفسه: [من الخفيف]

كنتُ أستعمل البياض من الأمْـ ـشاطِ عُجْباً بلمَّتي وشبابي
فاتَّخذتُ السوادَ في حالة الشَّيْـ ـبِ سُلُوًّا عن الصِّبا بالتَّصابي

وكانت وفاته في جمادى الآخرة بشَيْزَر رحمه الله تعالى.

السنة الثانية والتسعون وأربع مئة

في يوم الجمعة ثالث عشرين شعبان استولى الفرنج على البيت المقدس، ساروا من أنطاكية ومقدمهم كُنْدَهري في ألف ألف، منهم خمس مئة ألف مقاتل، والباقون رجَّالة، وفَعَلة، وأربابُ مجانيق، وعرَّادات، وغيرها من آلة القتال، وجعلوا طريقَهم على الساحل، وكان بها افتخارُ الدولة من قِبَل المصريين، فأقاموا يقاتلون أربعين يوماً، وعملوا بُرجَين مُطِلَّين على السور، أحدهما بباب صهيون، والآخر بباب العمود وباب أسباط وهو برج الزاوية، ومنه فتحها صلاح الدين رحمه الله ، فأحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون، وقتلوا مَنْ فيه.

وأما الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور، وحكموا به على البلد، وكشفوا مَنْ كان عليه، ورمَوا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد، فانهزم المسلمون، فنزلوا البلد، وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى، فاحتموا بها، فهجموا عليهم، فحُكي أنهم قتلوا في الحرم مئة ألف، وسبَوا مثلهم، وقتلوا الشيوخ والعجائز، وسبوا النساء، وأخذوا من الصخرة والأقصى سبعين قنديلاً، منها عشرون ذهباً، في كل قنديل ألف مثقال، ومنها خمسون فضة، في كل قنديل ثلاثة آلاف وست مئة درهم بالشامي، وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، وأخذوا من الأموال مالا يُحصى.

ومنذ افتتحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه في سنة ست عشرة لم يزل في أيدي المسلمين إلى هذه السنة، وكان الأفضل بن أمير الجيوش لمَّا بلغه أنهم قد ضايقوا القدس سار في عشرين ألفاً، وجَدَّ في السير، فوصل ثاني يوم فتحه ولم يعلم،

وقصده الفرنج، فدخل عسقلان، وقُتِلَ من أصحابه عددٌ كثير، وأحرق الفرنج ما حول عسقلان، وقطعوا أشجارها، وعادوا إلى القدس.

وذكر أبو يعلى أنَّ فتوح المعرة كان في هذه السنة قبل القدس، فقال: زحف الفرنج في مُحرَّم هذه السنة إلى سور المعرة من الناحية الشرقية والشمالية، وأسندوا البرج إلى سورها، وكان أعلى منه، ولم تزل الحرب عليها إلى وقت المغرب من اليوم الرابع عشر من المُحرَّم، وصعدوا السور، وانكشف أهلُ البلد بعد أن تردَّدت إليهم رسل الفرنج، وأعطوهم الأمان على نفوسهم وأموالهم وأن لايدخلوا إليهم، بل يبعثوا إليهم شحنة، فمنع من ذلك الخلف بين أهلها، وملكوا البلد بعد المغرب، وقُتِلَ من الفريقين خلقٌ كثير، ثم أعطوهم الأمان وغدروا بهم، ورحلوا في آخر رجب إلى القدس، وانجفل الناس بين أيديهم، فجاؤوا إلى الرملة فأخذوها عند إدراك الغلَّة، وانتهوا إلى القدس، وقاتلوا أهلَه، وألصقوا البرج إلى السور.

وبلغهم خروج الأفضل من مصر، فجدُّوا في القتال، ونزلوا من السور، وقتلوا خلقاً كثيراً، وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم، وهدموا المشاهدَ وقبرَ الخليل عليه الصلاة والسلام، وتسلَّموا محراب داود بالأمان، ووصل الأفضلُ بالعساكر وقد فات الأمر، فنزل ظاهرَ عسقلان في رابع عشر رمضان ينتظر الأسطول في البحر والعرب، فنهض إليه الفرنج في[خلقٍ عظيم، فانهزم العسكر المصري إلى ناحية عسقلان، ودخل الأفضل عسقلان، ولعبت سيوف الفرنج في[1]] العسكر والراجل والمطوعة وأهل البلد، وكانوا زُهاءً عن عشرة آلاف، ومضى الأفضل إلى مصر، وقرَّروا على أهل البلد عشرين ألف دينار تُحمل إليهم، وشرعوا في جبايتها من أهل البلد، فاختلف المُقدَّمون فرحلوا ولم يقبضوا من المال شيئاً.

وحُكيَ أنه قُتِلَ في هذه الوقعة[2] من أهل عسقلان من شهودها وبناتها وتجارها وأحداثها سوى أجنادها ألفان وسبع مئة نفس، ولمَّا تمت هذه الحادثة خرج

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) في (خ) السنة، والمثبت من (ب).

المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين أبي سعد الهروي، فوصلوا بغداد، وحضروا في الديوان [وقطعوا شعورهم، و استغاثوا وبكوا، وقام القاضي في الديوان[١]] وأوردوا كلاماً أبكى الحاضرين، وندب من الديوان مَنْ يمضي إلى العساكر السلطاني ويُعرِّفهم بهذه المصيبة، ووَقْعِ التقاعد، فقال القاضي الهروي - وقيل: هي لأبي بكر المظفر الأبيوردي[٢] -: [من الطويل]

مزَجْنا دماءً بالدموعِ السواجمِ[٣] فلم يبقَ منَّا عُرضةٌ للمراجمِ[٤]
فإيهاً بني الإسلام إنَّ وراءَكُمْ وقائعُ يُلحِقنَ الذُّرا بالمناسمِ[٥]
بحيثُ السيوفُ البيضُ مُحمرَّةُ الظُّبا[٦] وسُمْرُ العوالي داميَاتُ اللَّهاذِمِ[٧]
وبين اختلاسِ الطَّعنِ والضربِ وقفةٌ تظلُّ لها الوِلدانُ شِيبَ القوادمِ[٨]
وكيف تنامُ العينُ ملءَ جفونها على هَفَواتٍ أيقَظَتْ كلَّ نائمِ
وإخوانُكُمْ بالشَّامِ يُضحي مقيلُهُمْ ظهورَ المذاكي[٩] أو بطونَ القشاعمِ[١٠]
يسومُهُمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ تجرُّونَ ذيلَ الخَفْضِ فِعْلَ المُسالِمِ
وتلك حروبٌ مَنْ يغِبْ عن غِمارِها ليَسْلَمَ يقرَعْ بعدَها سِنَّ نادِمِ
وكاد لهنَّ المُستَجِنُّ بطيبةٍ يُنادي بأعلى الصوتِ يا آل هاشمِ
أرى أُمتي لا يشرعون إلى العِدى رماحَهم والدين واهي الدعائمِ
ويجتنبون النارَ خوفاً من الرَّدى ولا يحسبون العارَ ضربةَ لازمِ

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) والأبيات في المنتظم ١٧/ ٤٧ ـ ٤٨ . والكامل ١٠/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، وتاريخ الإسلام ١٠/ ٦٦٩ ـ ٦٧٠ ، وفي غيرها من المصادر.

(٣) السواجم؛ من السجوم: وهو قطران الدمع وسيلانه.

(٤) تحرفت في الأصلين (خ) و(ب) إلى: للمناجم، والمثبت من المصادر، والمراجم: الكلم القبيحة.

(٥) المناسم؛ جمع مَنْسِم: وهو طرف خف البعير.

(٦) الظُّبا؛ جمع ظُبَةٌ: وهو السيف والسنان والخنجر وما أشبهها.

(٧) اللهاذم، جمع لَهْذم: وهو كل شيء قاطع من سنان وسيف ونحوه.

(٨) القوادم، جمع قادم: وهو الرأس.

(٩) المذاكي: جمع مَذَكٍّ: وهي الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان.

(١٠) القشاعم؛ جمع قِشْعام: وهو النسر المُسِنّ أو الضخم.

أترضى صناديدُ الأعاريبِ بالأذى ... ويُغْضي على ذُلٍّ كُماةُ الأعاجمِ
ولو أنهُمُ إذ لم يَذودوا حميَّةً ... عن الدِّينِ ضَنُّوا غَيْرَةً بالمحارمِ
وإن زهِدوا في الأجرِ إذ حميَ الوغى ... فهلَّا أتوْهُ رغبةً في المغانمِ

وقال أيضا: [من الوافر]

أحلَّ الكفرُ بالإسلامِ ضَيْماً ... يطولُ عليه للدِّين النَّحيبُ
فحقٌّ ضائعٌ وحِمًى مُباحٌ ... وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صَبيبُ
وكم من مسلمٍ أمسى سليباً ... ومسلمةٍ لها حَرَمٌ سليبُ
وكم من مسجدٍ جَعلوهُ ديْراً ... على مِحرابِهِ نُصِبَ الصليبُ
دمُ الخِنزيرِ فيهِ لهُمْ خَلوقٌ ... وتحريقُ المصاحفِ فيه طيبُ
أمورٌ لو تأملهُنَّ طِفْلٌ ... لَطَفَّلَ في عوارضِهِ المشيبُ
أتُسبى المسلماتُ بكلِّ ثغرٍ ... وعيشُ المسلمين إذاً يطيبُ
أما واللهِ والإسلامُ حقٌّ ... يدافعُ عنه شُبَّانٌ وشِيبُ
فقلْ لذوي البصائرِ حيث كانوا ... أجيبوا اللهَ ويحكُمُ أجيبوا

وفيها توفِّي

إبراهيم بن مسعود[1]

ابن محمود بن سُبُكْتِكين، آلَ أمرُه إلى أن استولى على بلاد غَزْنة.

وكان عادلاً منصفاً شجاعاً جواداً، منقاداً إلى الخير، كثيرَ الصدقات والصِّلات، محبوباً إلى العساكر والرعية.

وقال الفقيه أبو الحسن[2] الطبري: أرسلني إليه بركياروق في رسالة، فرأيتُ في مملكته مالا يتأتَّى وصفُه، دخلتُ عليه وهو في طيارة عظيمة بمقدار رواق المدرسة النظامية، وسقوفُها وأبوابُها مصفحةٌ بالذهب والفضة، وعلى أبوابها الستور التِّنِّيسي، وللمكان شعاع يأخذ بالبصر، وهو على سرير من الذهب مرصَّعٍ بالجواهر، وحوله

(١) المنتظم ١٧/ ٤٩. وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ١٥٦.

(٢) تحرف في (خ) إلى: أبو إسحاق، والتصويب من (ب) ومصادر ترجمته في السير ١٩/ ٣٥٠.

التماثيل المرصَّعة باليواقيت، فسلَّمتُ عليه، وجلست بين يديه[١]، فلما أديتُ الرسالةَ قال للخادم: دُرْ به في القصر. فطاف بي، فرأيتُ ما هالني، ومن جملة ما رأيتُ خَرْكاة عظيمة قد أُلبست صفائح الذهب، وفيها من تماثيل اليواقيت والجواهر مالا أقدر أن أصِفَه، وفي وسطها سرير من العود القُماري، وحوله تماثيل طيور من الذهب بخرْكاةٍ، إذا جلس الملكُ على السرير صفَّقت بأجنحتها، إلى غير ذلك من العجائب، فلمَّا عدتُ إليه أوردتُ له أحاديث، منها قولُه ﷺ: «لمَناديلُ سعد بن معاذ في الجنة أحسَنُ من هذا» فبكى[٢].

وما كان يبني لنفسه مكاناً حتى يبني لله مسجداً أو مدرسة.

وكانت وفاته في رجب، وقد جاوز السبعين، وأقام والياً نيِّفاً وأربعين سنة.

عبد الباقي بن يوسف[٣]

ابن علي بن صالح، أبو تراب، المَراغي، الفقيه، الشافعي، ولد سنة إحدى وأربع مئة، ونزل نيسابور ودرَّس بها، وكان يقول: أحفظ أربعة آلاف مسألة في اختلاف الفقهاء والكلام عليها، وأُناظر في جميعها.

وكان يحفظ الحكايات والنوادر، قانعاً من الدنيا باليسير على طريقه السلف، بعث إليه السلطان منشوراً بقضاء هَمَذان، فردَّه وقال: أنا في انتظار المنشور الأكبر من الله تعالى بلقائه، وقدومي عليه، وقعودي ساعةً في هذا المسجد على فراغ القلب أحبُّ إليَّ من ملك الثقلين.

وكانت وفاته في ذي القعدة عن ثلاث وتسعين سنة، وكان إماماً زاهداً ورعاً عابداً.

السنة الثالثة والتسعون وأربع مئة

فيها في يوم السبت سادس عشر صفر خرج الوزيرُ عميدُ الدولة لاستقبال بركياروق إلى صَرْصَر في الموكب، وعاد من يومه، ودخل بركياروق يوم الأحد إلى دار المملكة، وبعث إليه الخليفة خيلاً وسلاحاً وهدايا.

---

(١) في (خ): فجلست عليه، والمثبت من (ب).

(٢) الحديث أخرجه البخاري (٣٨٠٢) ومسلم (٢٤٦٨) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٣) المنتظم ١٧/ ٥٠ ـ ٥١ ، والأنساب ١١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ١٧٠ .